﴿ليشهدوا منافع لهم﴾

## □ ليشهدوا منافع لهم □

سبحان من إلى بيته حملهم ، وبفنائه أنزلهم ، وإلى حرمه أوصلهم ، وبإخلاص قصده جمّلهم فقد جمع الخير لهم ﴿ **ليشهدوا منافع لهم** ﴾ .

حرّكهم بتوفيقه فثاروا ، وأوصلهم إلى حرمه وزاروا ، واجتمعوا بالآمال حول البيت واستداروا ، فضافهم من أضافهم إلى الأحباب ، وأنزلهم ﴿ **ليشهدوا منافع لهم** ﴾ .

اعلم يا أخي أن المنافع التي يشهدها الحجيج كثير .. فالحج موسم ومؤتمر ، الحج موسم تجارة وموسم عبادة .. والحج مؤتمر اجتماع وتعارف ، ومؤتمر تنسيق وتعاون ... وهو الفريضة التي تلتقي فيها الدنيا والآخرة ، كما تلتقي فيها ذكريات العقيدة البعيدة والقريبة .... وهو سبيل لتكفير الخطايا .. والفوز بالجنة.. والقضاء على الفقر.. ونيل ثواب المجاهدين، ورفع الدرجات، وإجابة الدعاء.. والتكافل مع الغير.. وتربية للنفس وتهذيب .. وبه يباهي الله بالحجيج ملائكته.

أصحاب السلع والتجارة يجدون في موسم الحج سوقا رائجة ، حيث تجبى إلى البلد الحرام ثمرات كل شيء .. من أطراف الأرض ، ويقدم الحجيج من كل فج ومن كل قطر ، ومعهم خيرات بلادهم ما تفرق في أرجاء الأرض في شتى المواسم يتجمع كله في البلد الحرام في موسم واحد ، فهو موسم تجارة ومعرض نتاج ، وسوق عالمية تقام في كل عام .

وهو موسم عبادة تصفو فيه الأرواح ، وهي تستشعر قربها من الله في بيته الحرام . وهي ترف حول هذا البيت ، وتستروح الذكريات التي تحوم عليه ، وترف كالأطياف من قريب ومن بعيد .

طيف إبراهيم الخليل عليه السلام وهو يودع البيت ، فلذة كبده إسماعيل وأمه ، ويتوجه بقلبه الخافق الواجف إلى ربه .

وطيف هاجر وهو تستروح الماء لطفلها ، قصتها مع زمزم ، وتوكل هاجر الجميل على ربها .

وطيف إبراهيم عليه السلام وهو يرى الرؤيا ، فلا يتردد في التضحية بفلذة كبده ، ويمضي في الطاعة المؤمنة إلى ذلك الأفق البعيد ، وإذا رحمة الله تتجلى في الفداء بذبح عظيم .

وطيف إبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام - يرفعان القواعد من البيت في إنابة وخشوع ﴿ **ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم** ﴾ .

وتظل هذا الأطياف وتلك الذكريات ترف وتتابع ، وكيف نجّى الله عبد الله بن عبد المطلب من ذبحه عبد المطلب له وفاء بنذره ، ينجو ليودع رحم آمنة أطهر نطفة وأكرم خلق الله على الله - محمد رسول الله ﷺ - ثم يموت ! فكأنما فداه الله من الذبح لهذا القصد الوحيد الكريم الكبير .

ثم تتواكب الأطياف والذكريات من محمد رسول الله ﷺ وهو يدرج في طفولته وصباه فوق هذا الثرى ، حول هذا البيت ، وهو يرفع الحجر الأسود بيديه الكريمتين فيضعه موضعه ليطفىء الفتنة التي كادت تنشب بين القبائل .. وهو يصلي .. وهو يطوف .. وهو يخطب ... وهو يعتكف ... وإن خطواته عليه الصلاة والسلام لتنبض حية في الخاطر ، وتتمثل شاخصة في الضمير ، يكاد الحاج هناك يلمحها وهو مستغرق في تلك الذكريات .. وخطوات الحشد من صحابته الكرام ، وأطيافهم ترف وتدف فوق هذا الثرى ، حول ذلك البيت ، تكاد تسمعها الأذن ، وتكاد تراها الأبصار .

والحج بعد ذلك كله مؤتمر جامع للمسلمين قاطبة .. مؤتمر يجدون فيه أصلهم العريق الضارب في أعماق الزمن منذ أبيهم إبراهيم الخليل ﴿ **ملة أبيكم**

**إبراهيم هو سمّاكم المسلمين من قبل** ﴾ ويجدون محورهم الذي يشدهم جميعا إليه ؛ هذه القبلة التي يتوجهون إليها جميعا ، ويلتقون عليها جميعا .. ويجدون رايتهم التي يفيئون إليها .. راية العقيدة الواحدة التي تتوارى في ظلها فوارق الأجناس والألوان والأوطان .. ويجدون قوتهم التي قد ينسونها حينا .. قوة التجمع والتوحد والترابط الذي يضم الملايين .. الملايين التي لا يقف لها أحد لو فاءت إلى رايتها الواحدة التي لا تتعدد .. راية العقيدة والتوحيد .

وهو مؤتمر للتعارف والتشاور وتنسيق الخطط وتوحيد القوى ، وتبادل المنافع والسلع والمعارف والتجارب ، وتنظيم ذلك العالم الإسلامي الواحد الكامل المتكامل مرة في كل عام .. في ظل الله .. بالقرب من بيت الله .. وفي ظلال الطاعات البعيدة والقريبة ، والذكريات الغائبة والحاضرة في أنسب مكان ، وأنسب جو ، وأنسب زمان .

فلذلك إذ يقول الله سبحانه : ﴿ **ليشهدوا منافع لهم** ﴾ كل جيل بحسب ظروفه وحاجاته وتجاربه ومقتضياته . وذلك بعض ما أراده الله بالحج يوم أن فرضه على المسلمين ، وأمر إبراهيم عليه السلام أن يؤذن في الناس .

يقول الشيخ سيد قطب رحمه الله في [ الظلال ] (١ /٤٣٥) :

« الحج مؤتمر المسلمين السنوي العام .. يتلاقون فيه عند البيت الذي صدرت لهم الدعوة منه ، والذي بدأت منه الملة الحنيفية على يد أبيهم إبراهيم ، والذي جعله الله أول بيت في الأرض لعبادته خالصا ، فهو تجمع له مغزاه ، وله ذكرياته هذه التي تطوّف كلها حول المعنى الكريم ، الذي يصل الناس بخالقهم العظيم ... معنى العقيدة .. وهو المعنى الذي يليق بالأناسيّ أن يجتمعوا عليه ، وأن يتوافدوا كل عام إلى المكان المقدس الذي انبعث منه النداء للتجمع على هذا المعنى الكريم » .

والحج ينتهي بصاحبه إلى ترك كل ما ينافي حالة التحرج ، ويسمو بصاحبه

للتجرد لله في هذه الفترة ، والارتفاع على دواعي الأرض ، والرياضة الروحية على التعلق بالله دون سواه ، والتأدب الواجب في بيته الحرام لمن قصد إليه متجردا حتى من مخيط الثياب .

والحج يربي حس المؤمن ويرتفع به إلى المراقبة ﴿ **وما تفعلوا من خير يعلمه الله** ﴾ يكفي في حس المؤمن أن يتذكر أن الله يعلم ما يفعله من خير ويطلع عليه ، ليكون هذا حافزا على فعل الخير ، ليراه الله منه ويعلمه .. وهذا وحده جزاء .. قبل الجزاء .

**• والحج زاد للقلوب وتقوى لله :**

التقوى زاد للقلوب ، فمن ثَمَّ يدعوهم الله إلى التزود في رحلة الحج بزاد الجسد وزاد الروح .. فقد ورد أن جماعة من أهل اليمن كانوا يخرجون من ديارهم للحج ليس معهم زاد ، يقولون : نحج بيت الله ولا يطعمنا ! وهذا القول فوق مخالفته لطبيعة الإسلام ، يحمل كذلك رائحة عدم التحرج في جانب الحديث عن الله ، ورائحة الامتنان على الله بأنهم يحجون بيته فعليه أن يطعمهم !! ومن ثَمَّ جاء التوجيه إلى الزاد بنوعيه ، مع الإيحاء بالتقوى في تعبير عام دائم الإيحاء ﴿ **وتزودوا فإن خير الزاد التقوى** ﴾ . والتقوى زاد القلوب والأرواح .. منه تقتات .. وبه تتقوّى وترف وتشرق وعليه تستند في الوصول والنجاة .

قال تعالى : ﴿ **ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم** ﴾ .

هذا يشعر من يزاول التجارة وقت الحج أنه يبتغي من فضل الله حين يتجر ، وحين يطلب أسباب الرزق ؛ إنه لا يرزق نفسه بعمله . إنما هو يطلب من فضل الله ، فيعطيه الله ، فأحرى ألّا ينسى هذه الحقيقة ، وهي أنه يبتغي من فضل الله ، وأنه ينال من هذا الفضل حين يكسب وحين يحصل على رزقه .. ومتى استقر هذا الإحساس في قلبه وهو يبتغي الرزق ؛ فهو إذن في عبادة لا تتنافى مع عبادة الحج .. لهذا يجعل الحديث عن طلب الرزق جزءًا من آية تتحدث عن بقية شعائر الحج فتذكر الإفاضة والذكر عند المشعر الحرام .

• المصالح المرعية في الحج :

قال الدهلوي : المصالح المرعية في الحج أمور :

منها تعظيم البيت : فإنه من شعائر الله وتعظيمه هو تعظيم الله تعالى .

ومنها تحقيق معنى العرضة : فإن لكل دولة أو ملة اجتماعا يتوارده الأقاصي والأداني ليعرف فيه بعضهم بعضا ، ويستفيدوا أحكام الملة ويعظموا شعائرها . والحج عرضة المسلمين وظهور شوكتهم ، واجتماع جنودهم ، وتنويه ملتهم وهو قوله تعالى : ﴿ **وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا** ﴾ .

ومنها موافقة ما توارث الناس عن سيدنا إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ، فإنهما إماما الملة الحنيفية ومشرعاها للعرب ، والنبي ﷺ بُعث لتظهر به الملة الحنيفية ، وتعلو به كلمتها وهو قوله تعالى : ﴿ **ملة أبيكم إبراهيم** ﴾ فمن الواجب المحافظة على ما استفاض عن إماميْها؛ كخصال الفطرة، ومناسك الحج، وهو قوله ﷺ: « قفوا على مشاعركم، فإنكم على إرث من إرث أبيكم إبراهيم ».

ومنها الاصطلاح على حال يتحقق بها الرفق لعامتهم وخاصتهم كنزول منى ، والمبيت بمزدلفة ، فإنه لو لم يصطلح على مثل هذا : لشق عليهم ، ولم تجتمع كلمتهم مع كثرتهم وانتشارهم

ومنها الأعمال التي تعلن بأن صاحبها موحد تابع للحق ، متدين بالملة الحنيفية ، شاكر لله على ما أنعم على أوائل هذه الملة كالسعي بين الصفا والمروة .

ومنها أن أهل الجاهلية كانوا يحجون ، وكان الحج أصل دينهم ، ولكنهم خلطوا أعمالا ليست مأثورة عن إبراهيم عليه السلام ، وإنما هي اختلاق منهم ، وفيها إشراك لغير الله ، كتعظيم إساف ونائلة ، وكالإهلال لمناة الطاغية ، وكقولهم في التلبية : لا شريك لك ؛ إلا شريكا هو لك ، ومن حق هذه الأعمال أن ينهى عنها ويؤكد في ذلك .

وأعمالا انتحلوها فخرا وعجبا كقول حمس : « نحن قطان الله ، فلا نخرج من حرم الله » . وكذكرهم آبا هم أيام منى ، وتحرّج الأنصار في السعي بين الصفا والمروة .

ومنها أنهم كانوا ابتدعوا قياسات فاسدة هي من باب التعمق في الدين ، وفيها حرج للناس ، ومن حقها أن تنسخ وتهجر كقولهم : يجتنب المحرم دخول البيوت من أبوابها . وكانوا يتسورون من ظهورها ظنا منهم أن الدخول من الباب ارتفاق ينافي هيئة الإحرام فنزل : ﴿ **وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها** ﴾ . وككراهيتهم التجارة في موسم الحج ظنا منهم أنها تخل بإخلاص العمل لله فنزل: ﴿**ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم**﴾ . وكاستحباب أن يحجوا بلا زاد ويقولوا نحن المتوكلون . وكانوا يضيّقون على الناس ويعتدون فنزل : ﴿ **وتزودوا فإن خير الزاد التقوى** ﴾ .

وكقولهم : من أفجر الفجور العمرة في أيام الحج . وكقولهم : إذا انسلخ صفر ، وبرأ الدَبر[1]، وعفا الأثر ، حَلّت العمرة لمن اعتمر . وفي ذلك حرج للآفاقي حيث يحتاجون إلى تجديد السفر للعمرة ، فأمرهم النبي ﷺ في حجة الوداع أن يخرجوا من الإحرام بعمرة ويحجوا بعد ذلك ، وشدد الأمر في ذلك ينكلهم على عاداتهم ، وما ركز في قلوبهم[2] .

---

(١) جمع دَبَرَة : جروح على ظهر الإبل من اصطكاك الأقتاب بالسير إلى الحج ، وعفا الأثر أي : انمحى أثر الحاج من الطريق بوقوع الأمطار .

(٢) حجة الله البالغة .